المقدّس المبهم والتغيرات الاجتماعية

المقدّس المبهم و التّغيرات الاجتماعية

نورالدين طوالبي
أستاذ بجامعة الجزائر

من منطلق كونه أوالية في مجابهة التّناقض الثقافي تعتمدها جماعة من الذكور المحافظين الرسميين على نوع من « الثقافة العائلية» ان لم نقل المحدثين لها ، يستسلم المقدس أحيانا لعملية ترويضه من قبل جماعة انثوية تجعل منه أداة ثأرية ضد الانوية القضيبية التي تكون ، أو تعتقد انها ، ضحية لها.

عندئذ، تبرز بنية المقدس من جديد في حين تتحول وظائفه الى حركة رفض ترتدي ،كما سنرى، صبغة جنسية خاصة.

أ - القدرة السحرية، تركيبها، وتجسيدها

يترافق تجسد المقدس البدعي ، في حقل التفاعلات البشرية، مع تركيبة طقسية شديدة التعقيد. فهو يفرض حكما، وفي مقابل الخضوع النهائي للالوهيات الملتمسة، خضوعا مسبقا للجماعة التي تجعله موئل صلاتها وتضرعها ضمن هذا الاطار، يعتبر الاحتفال الطقسي بالوعدة مثال التقوى. ويلاحظ انقياد الناس للروحانيات الملتمسة من عدة نواح

— **الاطار الزمني** : لا يكون التعبد ذا فعالية إلا إذا اندرج في زمنية استرضائية ملتزمة باحتفال ديني مفخم . كذلك ثمة اهتمام بمطابقته مع احدى تلك المراحل المميزة التي يختارها الدين الحنيف لاعادة تأكيد تفوقه المعنوي فذكرى المولد النبوي مؤات بشكل خاص لتجسد الجن (1)، لأنه يرمز الى ظهور التوحيد الاسلامي و بالتالي ، ففي هذه الفترة الزمنية المفعمة بالتقوى، سوف يستثار هؤلاء الجن، كي يتركوا معبدهم ويختلطوا مع البشر الذين ينتظرون فضائلهم .

وكيف لا تستجاب دعوات الانسان الحائر عندما تشكل هذه الأخيرة بذاتها اعترافاً قيّماً بالتكافؤ بين المقدس البدعي ، الذي استعاد اليوم قيمته ، وبين رب الدين الشرعي الذي انه

محروم ، تقريبا، من سيطرته الوهمية على الكون ؟ ألا يعد ذلك إراحة للقوى الخفية في رغبتها الكامنة أبداً بالسيطرة على العالم وذلك من خلال تزويدها بقدرة اعرضت التقليدية كلياً عن قبولها ؟ ما من شك في ان الجن سيبرهنون أكثر عن خلقيتهم كلما ازداد تنافسهم ، في هوامات ورغبات البشر، ازاء المبرات التي وعد بها الله الاحد، الذي لا يتوقف عنها حتما إلا بعد طول أمد.

بالمقابل ، ليست نعم الجن ببعبدة ولا حصرية انها تغمر المصلي في اللحظة الراهنة بقدر ما يتقبل بأن يكون خضوعه ضروريا في فعالية تضرعاته وصلواته .

الاطار المادي : من خلال نزويته ونرجسيته ، ينوي المجمع الالهي الانتقال الى دائرة بشرية مفعمة بالرموز التي تدل على الغنى فالعطاء اللدني ، الذي يفترض انه يؤثر على سيكولوجية اتباعه ، ينبغي أن يبرز بصورة مرئية. والاستثمارات المادية العائدة اليه في هذه المناسبة الطقسية ينبغي بالتالي ان تكون على قدر الخدمات المنتظرة وذات الأهمية : طرد السوء بمختلف متغيراته ، تقويم الصحة النفسية أو الجسدية المتزعزعة، أو، بشكل أكثر شمولا ، الميل نحو نوع من السعادة التي تستمر الفوضوية المدينية في تحديدها ضمن جدول من الرموز المادية ذات القيمة الاجتماعية المرموقة : المال ، المساكن الفخمة ، الخ .

إذاً، في مقابل تحقيق كل هذه الرغبات ، ثمة هبات تختص بالمجمع الالهي ستشكل احدى بنيات التبادل مع المقدس من بينها، ان التضحية بالخراف بعدد مساو لعدد الآلهة الملتمسة، يشكل مرحلة اساسية في الاحتفال الطقسي . ذلك ان ميزة التضحية الخاصة تكمن في كونها تجتذب هذه الاشكال اللامرئية التي تأبى أن تصبح مادية الا كي تروي غليلا مكبوتا منذ مدة طويلة. وبعدم الحيوانات المذبوحة ترتبط حيوية الآلهة الملتمسة وعليه ، بالنتيجة، مقدرتها، كتعويض ، على أن تغمر المؤمنين بالعديد من الخيرات .

غير ان هذه المرحلة التمهيدية لا تقتصر على البعد الفمي للطقس : فيما بعد، أي بعد أن يروي الجن غليلهم من الحيوانات العديدة المذبوحة، ينبغي أن يتغذوا بكثرة بالأطعمة الغنية وبواسطة عملية تبديل لها متلاحقة. إن المرحلة الثانية من الطقس هي التي ستؤدي الى الاندفاع في استهلاك الأطعمة المعروفة بطاقتها الحرارية الكبيرة : اللحوم ، الحلويات ، السكاكر ، وهذا الاستهلاك تقوم به النساء وهن العناصر البارزة في الاحتفالات الطقسية . ثمة الكثير من الأطعمة التي سيتم اجتيافها بشكل تتسرب فيه . الى الجسم ، الطاقة التي ستتمكن الآلهة من الاغتراف منها في الفترة المقدرة للتجسد.

أخيرا، يجب أن تنضاف الى هذه الملذات الفمية، لذة أخيرة نظرية لأنها ، كما نعتقد، جمالية النسق

— **الاطـار البشري** : تجري طقـوس الـوعـدة في اطـار بشري يتم فيه الفصـل تمامـا بين الجنسين ، وباختصار كره الغرباء. ولأنها تتكون حصرا من النساء ، يستبعد منها الرجال كليا كما لو كان يخشى حتما من أن يؤدي وجودهم الى افشال مخطط غامض خاص بالآلهة الملتمسة. وسنعود آجلا الى هذا المخطط. أما ما هو مؤكد الآن فيكمن في أن الجن لا يخشون بتاتا من الانتشار في مناخ أنثوي تماما إضافة الى كونه مصطبغ بميزات تؤكد هذه الأنوثة : أدوات تزّين كثيرة ومتنوعة ،

مجوهرات ، رقصات هستيرية ، أفلا يشكل ذلك مشهدا لذيذا للنظر المولع بالصور الوثنية ؟ وفي الحقيقـة ، يتم الأمـر كما لو كان لهذه التمهيدات الطقسية التي تذكرنا بالاحيائية القديمة ميزة مزدوجـة تكمن من جهـة في التعجيل بتجسيد المقدس ، وفي جعله من جهة أخرى أداة تعيد الاعتبار للقدرة الانثوية التي انتزعتها حاليا حضارة الأنوية القضيبية.

▪ من الكبت الى التصريف الجنسي

ـ **المضمون الثقافي** : اذا اعتبرنا ان الثقافة الاحيائية خارجة عن اطار المألوف من حيث ما يتبدى لنا من آثارها ووضاماتها. فان التوحيد الاسلامي كرس نفسه أيضا ليقذف بالحرام النزوة الجنسية التي سيرتبط فعلها مذ ذاك بالزواجية فقط . بصورة يشكل فيها الفسق والزنا على الفور، في نظر العقيدة الدينية، الانتهاك الرئيسي الذي سيعاقب مرتكبه بالموت ـ رجلا كان أم امرأة. إنما من منطلق اعتبارها للنزوة الجنسية المتعذر كبتها على الصعيد النفسي ، توافق العقيدة الاسلامية على أن ترى فيها بالمقابل مصدرا للايمان إذ تصبح بالتالي ، لدى تصريفها في اطار الزواج ، عامل تعزيز للأمة في خدمة مجد الله . بهذا الصدد يعتبر كتاب بوهدبة (1975) وثيقة مهمة تتضمن براهين على هذا التقدير للجنسية في الاسلام .

إنـما يبقى ان الحضـارة العربية ـ الاسلامية اعتمدت ، ضمن تفاوتات أخرى بين النظرية والتطبيق الدينيين ، على تفسير الجنسية بصورة تطرفية تقريبا وهو التفسير الزواجي . وإضافة الى تمسكهـا بنـزعـة المحورية القضيبية الرئيسية، ستجعل هذه الحضارة من المسألة الجنسية حجة إضافية في الثأر من الجسد الأنثوي الذي يثقل عليه تقليديا عدد من السوابق التي تشيع صورة المرأة «الفاسدة بالطبع ». هذا التمثيل الثقافي للمرأة المسلمة، رغم كونه مناقضا لروح الرسالة القرآنية، كان من نتيجته الطبيعية الاجتماعية على الأقل ، ورسميا، مصادرة السلطة العائلية فقط لمصلحة الجماعة الذكورية التي لن تتوانى عن وضع المعايير بل وحتى اضفاء الشرعية على الكبت الجنسي عند المرأة. وإذ يعرض باسم معيار ديني زائف ، يحدث هذا الكبت بطريقة مبطنة، مع استخـدام ذرائـع مهـذبـة (عيب ، حشمـة، الخ . . .)أو اجتماعية (نيف ، عار . . .)كتعبير معياري عن الاسم (2). من هنا خضوع المرأة المسلمة للرجل ، وكذلك حاجتها الى «صمامات امـان ثقـافية» ذات نزعـة سيكـولـوجية نحـو تفـريغ التـوتـرات النفسية الـوجـدانية. في هذه المدونة ، تشكل الوعدة في مدينة الجزائر المجال النموذجي لعملية التفريج الجنسي المشروع .

غير ان الخوف من المقدس سيعكس ، لفترة ما، العلاقات بين الجنسين بمعنى ان العلاقة التقليدية بين المسيطر (الرجل) ـ والمسيطر عليه (المرأة) تبدل مقاييسها : يوافق الرجل ، الذي يقلقه وجود قوة، في الطقس ، لا متناهية أكثر مما هي خفية، يوافق على التخلي عن سلطته التي ستتزود بها المرأة. هنا، تكمن مرحلة الثأر هذه التي تتبع سياقا طقسيا ثابتا مكونا من ثلاث مراحل متتابعة :

— ان القيمة الخيرية للطقس السحري (الكمال النرجسي ، الخيرات المادية ، الشفاء . . .) يجعل ، بالنسبة للرجل ، مسألة نبذه من حقل المقدس محتملة. هذا المقدس الذي يصبح عندئذ وقفا على الجماعة الأنثوية فقط . فالاعتماد بمكافأة مستقبلية كتعويض عن هذا الاعتراف بالخضوع للارادة الأنثوية ، يختصر اول مستويات تعثر المحورية القضيبية التقليدية.

— ان الخوف من الثأر أو، بحصر المعنى، من الانتقام الأنثوي يشكل عند الرجل اعترافا ضمنيا بالقدرة الكامنة عند الجماعة الأنثوية المتحالفة مع الأرواح الجبارة. عندئذ، يكون ملزما، تحت طائلة العقوبات الشديدة، بالانخراط في مقتضيات الطقس الاحتفالية، التي ينبغي عليه أن يشهدها بانتباه وعن مسافة بعيدة. هذا هو المستوى الثاني في مسألة رفض الأنوية القضيبية.

— كونها موضوع السلطة الذكورية أثناء المعاش اليومي ، تتحرك المرأة أثناء الطقوس السحرية، ضمن اطار جامد موضوع تحت تصرف الألوهية التي تجعل منه مكانا طبيعيا للتجسد . فإذا كان يعبر عن المرحلة القادمة للعطاء الطقسي العائد للأرواح ، يتخذ هذا التجسيد في جسم الانثى السلبي والمكرس كلية لنزوات الوصي عليها، يتخذ قيمة ترمز الى الاستحواذ الجنسي الحسي تماما. إضافة الى أن ثمة مغزى في جعل المرأة، التي اختيرت لتكون الوعاء الذي تصبح فيه المبهمات محسوسة، تنعزل عن زوجها الشرعي طيلة مدة الاحتفال الطقسي . انها، الى ذلك ، تتلبس صفة «الفرسة» وهي صفة، ونحن نعترف بذلك ، تحكي مطولا عن ملاءمتها لتكون موضع تلذذ الجن الذين سيختارونها. اخيرا، تنكشف طبيعة العلاقات الجنسية بين المقدس الهمجي (الروح) والموضوع الدنيوي (المرأة)، ضمن عدد من المؤشرات الفيزيائية (الالغاء ، الجمادية .) والنفسية (حالة من النوم الثملي)، التي توحي للمرأة، في نهاية الرعدة، بالمؤشرات التي تسود اثناء العلاقة الغرامية. أخيرا، لايتم تحرر المستحوذة (3) إلا إذا سبقتها «عطسة» تطلقها الروح التي تستخدم دائما هذه الاشارة للدلالة على ذهابها . وقد يمكن اعتبار هذه العطسة بمثابة مكافيء رمزي لـ «الاورجازم » (4) الشرعي .

هذه المرحلة الثالثة من الاحتفال الطقسي تقفل دورة الاحتفال هذا في ذات الوقت الذي تؤكد فيه ، بالنسبة للرجل ، مقدرته على القبول بامكانية التخلي عن الوضع القضيبي عندما يتحالف

موضوع هذا التخلي - أي المرأة - ولو قليلا ، مع المقدس الجبار

غير ان هذا الاخصاء الطوعي لا يكون هلعيا بسبب ثلاثة عوامل متلاقية يكمن دورها في تخفيف صدمته السيكولوجية :

1 :- ان استحواذ المقدس على الجسد الأنثوي هو ظاهرة تشكل في التمثلات الجماعية علاقة لا جنسية . إذ بينما يكون المقدس استعلائيا، من حيث التعريف به ، يكون الجنسي ، على العكس ، ثابتا، بشكل يكون فيه للاوعي الأنثي متسعا من الوقت لاخفاء كل علاقة ذات طبيعة جنسية بين الطرفين .

2 :- عدا ذلك ، يشكل الاستحواذ اللاجنسي بل العكس القدسي ، ظاهرة تنحصر في وحدة زمنية قصيرة جدا لا يمكن معها المراهنة على تناسق العلاقات ذكر - أنثى بصورة معبرة . بنتيجة ذلك ، يشعر الرجل بشكل متفاوت الغموض ، ان تكامله القضيبي - النرجسي غير مهدد بصورة خطرة من قبل الفوطبيعي الذي يبشر، في نهاية الأمر، بالنعم أكثر مما يفرض حالات من الحرمان .

3 :- هذا الجانب الخيري من الاستحواذ هو بالضبط الذي لا تحصى فضائله بالمقارنة مع التهديداتَ بالخصاء الذي يبرر الانخراط في التعبد . نذكر الأكثر انتشارا بينها :

— الثروة المادية : هل هي رغبة هوامية ؟ لا، بل انها بالأحرى رغبة جماعية برفاهية تنافسية . لقد أشرنا الى ذلك مرات عدة : انها احدى الأزمات السيكولوجية الناتجة عن التبدلات الاجتماعية التي ترسيها **الفوضوية**، أي الافراط في كل شيء كسلوك معياري في حين تكون أساسا مخلة بوظيفتها . وذلك بقدر ما تكون هذه الفوضوية معدية وتؤثر، بالنتيجة، بصورة مبكرة، على مجموع الطبقات الاجتماعية و يتم ذلك من خلال عملية تنافسية تعتمد على الاجتياف «المسعور» للعناصر الأكثر وضوحا من هذه الرفاهية . في خضم هذه الرغبة الجماعية بالتفوق الاجتماعي ، يكون الأكثر قلقا هم الأكثر انشغالا بالتزود بحلفاء أقوياء كالجن الخيرين وذلك عن طريق وسطاء وهم النساء .

— الصحة الجسدية والنفسية : ان فكرة الثروة تثير الرغبة في الحياة . في هذا الاطار الفوضوي ، تشكل النظرة الى الموت حملا ثقيلا جدا على من لا يرى في الوجود سوى سلسلة متواصلة من المباهج . كذلك يتم الترحيب بكل عمل من شأنه أن يطرد الفأل السيء ، وطبعا بشعائر الاستحواذ الذي ينطوي ، كما يبدو لنا على قدرة وثاقية لا مثيل لها . ألا يشكل هذا الأمر ملاذا مضمونا في مواجهة أذيات **الرّامي** التي تتربص بالمتهور المغتر بأملاكه وثرواته ؟ .

ان طرد هذا الخطر الكامن يتطلب تحالفا سريا مع اختلاطات الكون ، الى جانب السرية

الاجتماعية المسموح بها دائما فيما يتعلق بخصائصه العامة. على هذا الأساس ، يصبح العمل الشرير، الذي يقوم به الغيورون و مسببو الأذى السحري ، «مقيدا» وتصبح الحياة وكأنها الثروات المكتسبة. وإذا، رغم كل شي ،، أدى سوء الحظ الى حدوث مكروه ما، فان التحالف المعقود مسبقا مع المقدس ينطوي على تأثير الصلاة العلاجي والتفريجي تبعا لكون الأمر مرهونا بمرض أو بقلق وجودي .

في هذه الظروف ، كيف لا يمكن القبول بالقيام بالتقليل من شأن الأنوية القضيبية عندما يغري ذلك بالكثير من الطمأنينة ؟ .

لكن المقدس ، كما أسلفنا، نزوي . عندما يتراءى له ان الانسان يجرّحه في قدراته ، فانه يعرف كيف يبرز انتقاما ذريعا. وإذا لم يهاجم ، يلوذ بالصمت ، بتماوت ولا يستجيب للتعريضات الموجهة اليه . سوف نرى، في هذه الحالات ، ان في صحته ما يدعو الى الحيرة والاهتمام .

هوامش

1) تطرح بوتييه (1950) M.Bouteiller هي ، أيضا مقارنة مشابهة بالنسبة لفرنسا فيما يتعلق بالاجراءات الشامانية التي تتم عادة يوم الجمعة، أي في ذكرى موت المسيح

2) أنظر ر. طوالبي «مواقف وتمثيلات الزواج عند الفتاة الجزائرية . » .

3) Possedée أي تتلبس الأرواح جسدها. (المترجم).

4) Orgasme أي هزة الجماع (المترجم).